الفصل الرابع

اللغة العربية الفصحى واللهجات

الفرق بين اللغة واللهجة:

كان القدماء يعبرون عما نسميه الآن باللهجة بكلمة (اللغة) حيناً ، و(اللحن) حيناً آخر، وفي العصر الجاهلي وصدر الإسلام كان يطلق على اللغة كلمة (اللسان)، وهذا موجود في معظم اللغات الجزرية، وقد جاء في القرآن الكريم عن استعمال كلمة اللسان بمعنى اللغة ٨ مرات، منه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إبراهيم ٤.

واللهجة في الاصطلاح: هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات أفراد هذه البيئة جميعاً، وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات ، هي التي اصطلح على تسميتها باللغة، فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص، فاللغة تشتمل على عدة لهجات لكل منها ما يميزها، وأهم ما يميز اللهجات هو الاختلاف الصوتي-في الغالب-[1].

تشكل الفصحى:

يشوب العلاقة بين العربية الفصحى، ولهجاتها القديمة غموض، عند جمهرة الدارسين للعربية ، من المستشرقين وغيرهم؛ بسبب اهتمام اللغويين العرب القدماء اهتماماً بالغاً بدراسة الفصحى ، لغة القرآن الكريم، وإهمالهم الدرس الكامل للهجات العربية القديمة.

وما يقال عن العلاقة بينهما فروض وتخمينات، فمن المستشرقين (نولدكه) الذي يرى أن الفروق صغيرة بين اللهجات العربية الشائعة في جزء كبير من الجزيرة العربية، وأن الفصحى تعتمد على هذه اللهجات على حد سواء.

ورأى (جويدي Guidi) أن العربية الفصحى خليط من لهجات نجد والمناطق المجاورة، ولا تمثل لهجة بعينها من هذه اللهجات. ورأى (فيشر Fisher) أن العربية الفصحى تمثل لهجة معينة، غير أنه لم يعينها.

أما (فوللرز vollers) فقد خرج علينا بنظريته التي يرى فيها أن العربية الفصحى تعتمد على لغة البدو، في نجد واليمامة، غير أن الشعراء غيروها كثيراً.

الرأي السابق يختلف تماماً عن رأي العلماء العرب القدماء، فالعربية الفصحى عندهم هي لغة البدو؛ فالعربي البدوي هو الحكم الفصل في العربية الفصيحة(١)، وكان العرب يتخلصون من اختلاف اللهجات بالاعتراف بتساويها جميعاً في جواز الاحتجاج بها، بعد الاكتفاء

(١) فصول في فقه العربية: ٧٦-٧٧.

بإشـــارات عابرة في كتب الرواية واللغة إلى بعض تلك اللهجات[١].فهذا (ابن جني) على عنايته بدقائق الدراسة اللغوية لا يتردد في (الخصائص) في عقد فصـــل ســـماه (اختلاف اللغات وكلها حجة).وعنده أن اللهجات تتساوى في أنها قوية أو ضعيفة في كلام الفصحاء، فلا ضير أن يقال: رُغوة اللبن، ورَغوته، ورِغوته، وعنده امتداد لذلك الأمر هو تداخل اللغات وتركبها فيتهم بقلة الفهم من يفسـر هذا التداخل بالشـذوذ، أو ينسـبه إلى الوضـع في أصـل اللغة؛ فعنده إذا اختلف رجلان في الصـقر أو السـقر وقال آخر: الزقر، هذا عنده من تداخل اللغات[٢].

على هذا الأســـاس من تســـاوي اللهجات العربية جميعاً في جواز الاحتجاج بها، لم تكن ثمة بواعث قوية تحمل القدماء على العناية باللهجات، فوقعوا في التناقض حين اســـتنبطوا قواعدهم من كل ما روي عن القبائل، وأقحموا على الفصحى خصائص اللهجات المتباينة بوجوهها المتعددة، ومنشـــأ هذا كله خلطهم بين اللغة الأدبية المثالية الموحدة(لغة الخاصـة)وبين لهجات التخاطب(العامة)، على حين أن شـرط اللغة هو الاطراد والتوحد في الخصـائص، فكان الصـحيح أن يعتمد في اسـتنباط القواعد على اللغة الأدبية الممثلة في الآداب الجاهلية، والقرآن الكريم[٣].

---

(١) دراسات في فقه اللغة :٦٠-٦١.

(٢) الخصائص:١/٣٧٣-٣٧٤.

(٣) في اللهجات العربية:٤٣ .

الأسباب التي ساعدت على نشوء اللغة المشتركة:

نشأت اللغة المشتركة ونمت وازدهرت قبل مجيء الإسلام والأسباب التي ساعدت على نشوء اللغة المشتركة هي كالآتي:

١-السبب الديني:

لأن هذه اللغة نشأت في مكة ، البيئة المقدسة التي يفد إليها العرب من كل مكان؛ ليحجوا إليها، ويشهدوا أسواقها التجارية والأدبية؛ ويؤدي هذا إلى اجتماع فريق كبير من العرب، ويختلطون بأهلها ومن هذا الاختلاط نشأ ما يسمى اللغة المشتركة، وقد حملت هذه الوفود تلك اللغة المشتركة إلى قبائلها فانتشرت بين أنحاء الجزيرة العربية.

ازدادت هذه اللغة نمواً وازدهاراً ، بنزول القرآن الذي وحد العربية، التي وجدها الإسلام لغة مكتملة؛لذا اختار القرآن هذه اللغة ونزل بها .

٢-السبب الاقتصادي:

إن أهل مكة كانوا تجاراً ينتقلون إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف، هذا النشاط التجاري قد أتاح لهم الثراء، ومن ملك المال واحتضن الدين، فقد تحقق له سلطان سياسي قوي؛ ولهذا كانت اللهجة القرشية من أقوى اللهجات أثراً في تكوين اللغة العربية الفصحى[١].

صفات اللغة العربية المشتركة:

١- إنها فوق مستوى العامة، فهي لم تكن في متناول جميع العرب بل كانت في مستوى أرقى وأسمى، وإذا اتخذنا القرآن الكريم أنموذجاً للغة المشتركة ، وجدنا العرب ينظرون إليه وإلى أسلوبه نظرة أسمى حتى من آثارهم الأدبية الأُخر ؛لأنه تحداهم وأعجزهم ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله.

٢- لا تنتمي صفاتها أو عناصرها إلى بيئة محلية بعينها، بمعنى أن السامع لا يجد الصفات المحلية للهجات، فاللغة المشتركة ليست لغة قريش أو تميم أو قيس أو غيرها من قبائل العرب ، بل هي مزيج من كل هذا، فلا يسمع فيها كشكشة ربيعة ، أو عنعنة تميم، أو الصفات اللهجية الأُخر.

وقد يقال: إن كثيراً من الشواهد الشعرية في كتب النحو واللغة تضم شذوذاً ينسب إلى لهجات القبائل المختلفة؛ فإذا كنا نحسن الظن بروايتها نفسرها كالآتي:

أ-يمكن عدها أنها تنتمي إلى الأدب الشعبي أو أدب القبيلة؛ فهناك أدبان : الأدب المعروف، والآخر الشعبي، الذي يعرض القصص والفكاهات ، ولكنه لم يُروَ لنا؛ لأن الرواة ينظرون إليه نظرة احتقار، فلا يستحق الرواية، والعناية به، ومع هذا الإهمال قد تسرب إلينا بعضه، كقول الشاعر:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

ب- إن الشعر القديم كان ينظم باللغة المشتركة، ولكنه انحرف بعضه على ألسنة الناس.

أما إذا ساء ظننا برواية هذه الشواهد، فيمكن أن نتصور أن النحاة هم الذين وضعوا هذه الأبيات، أو غيروا موضع الشاهد منها؛ ليضعوا

القواعد حسبما شاء لهم الهوى، كما قال السجستاني(٢٥٥هـ) عن البيت المتقدم: سألت عن هذه الأبيات أبا عبيدة، فقال: انقط عليهن! هذا من صنعة المفضل.أو بسبب التحريف وهو التغيير في شكل الحروف المتشابهة الرسم، كالدال والراء، والدال واللام، والنون والزاي.أو التصحيف وهو تغيير نقْط الحروف المماثلة في الشكل، كالباء والتاء والثاء، والجيم والحاء والخاء، وغيرها(١).

أسباب نشأة اللهجات:

١- أسباب جغرافية: إذا كان أصحاب اللغة الواحدة يعيشون في بيئة جغرافية واسعة، تختلف الطبيعة فيها من مكان لمكان، كأن توجد جبال أو وديان تفصل بقعة عن أخرى، إذ ينشأ عن ذلك انعزال مجموعة من الناس عن مجموعة؛ فيؤدي ذلك مع الزمن إلى وجود لهجة تختلف عن لهجة ثانية تنتمي إلى اللغة نفسها، والذين يعيشون في بيئة زراعية يتكلمون لهجة غير التي يتكلمها من يعيش في بيئة صحراوية.

٢- أسباب اجتماعية: إن المجتمع الإنساني بطبقاته المختلفة يؤثر في وجود اللهجات، فالطبقة الارستقراطية مثلاً تتخذ لهجة غير لهجة الطبقة الوسطى أو الدنيا في المجتمع، ويلحق ذلك ما يلحظ من اختلافات لهجية بين الطبقات المهنية فتنشأ لهجات تجارية وأُخر صناعية وهكذا.

٣- احتكاك اللغات واختلاطها نتيجة غزو أو هجرات أو تجاور: وهو يعد من أهم الأسباب التي تؤدي إلى نشأة اللهجات ؛فقد يغزو شعب من الشعوب أرضاً يتكلم أهلها لغة أخرى، فيقوم صراع بين اللغتين الغازية والمغزوة، وتكون النتيجة إما القضاء على إحدى اللغتين يكاد يكون قضاء تاماً، أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين الغازية والمغزوة .مثال ذلك غزو العرب لجهات متعددة ، استطاعت أن تصرع تلك اللغات في مهدها ، فقد تغلبت على الآرامية في العراق والشام، وعلى القبطية في مصر، وعلى البربرية في بلاد المغرب ، والفارسية في بعض بقاع مملكة فارس القديمة.وغزو الرومان لجهات كثيرة في أوربا ، جعلت الرومانية تحل محل عدة لغات(١).

(١) اللغة:٣٤٨، في اللهجات العربية :٢٠-٢٣، اللهجات العربية في القراءات القرآنية :٤٣-٤٤.

أهمية دراسة اللهجات القديمة:

١- عند البحث في اللهجات العربية الحديثة، يتبين أنها ترجع في كثير من الحالات إلى اللهجات القديمة أكثر من رجوعها إلى الفصحى.

٢- تفيد دراسة اللهجات القديمة، في الإجابة عن السؤال العويص: هل العربية الفصحى،عبارة عن حصيلة لهجات عدة ،أو أنها لهجة قبيلة معينة.

٣- تفيد هذه الدراسة في معرفة مصادر القراءات القرآنية المختلفة(١).

٤-يمكن بها معرفة التطور في دلالات الألفاظ، ومعرفة ما تؤديه تلك المفردات من معانٍ مختلفة تبعا لاختلاف البيئات(٢).

---

(١) فصول في فقه العربية :٧٣-٧٤.

(٢) فقه اللغة (حاتم الضامن) :٥٦.